بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿يؤتكم﴾ الله ﴿كفلين﴾ أي: نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله. ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نورًا تمشون به﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿يسعى نورهم﴾ ﴿ويغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾.

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا ولا مزيدة ﴿ألا يقدرون﴾ أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا يقدرون يعني: أنّ الشأن لا يقدرون ﴿على شيء من فضل الله﴾ أي: لا ينالون شيئًا مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطابًا لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[1] ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرّقون بين أحد من رسله. روي: أنّ رسول الله ﷺ بعث جعفرًا رضي الله عنه في سبعين راكبًا إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له. فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا في الوفادة على رسول الله ﷺ فأذن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهيا لوقعة أحد فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين. فأنزل: ﴿الله الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يؤتون أجرهم مرتين فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين. وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزلت[2]. وروي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرئ: لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم ولأن يعلم بإدغام النون في الياء، ولين يعلم بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء، وعن الحسن: ليلا يعلم بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام وقيل: في وجهها حذفت همزة وأن وأدغمت نونها في لام لا فصار للا ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح كما أنشد:

أريد لا أنسى ذكرها

وقرئ: أن لا يقدروا ﴿بيد الله﴾ في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يؤتيه من يشاء﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المجادلة مدنية

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

﴿قد سمع الله﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات[4]. لقد كلمت المجادلة رسول الله ﷺ في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها»[5] وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها. وقال: قد سمع الله لها. وقرئ: تحاورك أي: تراجعك الكلام. وتحاولك أي: تسائلك. وهي: «خولة بنت ثعلبة امرأة أوس[6] بن الصامت أخي عبادة. رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها. فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوسًا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني أي: كثر ولدي جعلني عليه كأمّه. وروي أنها قالت له: إنّ لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فقال: «ما عندي في أمرك شيء» وروي أنه قال لها: «حرمت عليه»، فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقًا، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ. فقال حرّمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلما قال رسول الله ﷺ: حرّمت عليه هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿في زوجها﴾ في شانه[7]. ومعناه ﴿إنّ الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿قد﴾ في قوله ﴿قد سمع﴾؟ قُلْتُ: معناه التوقع لأنّ رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ

(1) سورة القصص، الآية: 54.

(2) رواه الطبري في تفسيره. وأخرجه الزيلعي 3/419.

(3) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه والزيلعي 3/420.

(4) قال أحمد: ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي، وليس بقوي؛ لأنه غير المقصود.

(5) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3460)، وأخرجه ابن ماجه المقدمة، باب: فيما ذكرت الجهمية (الحديث رقم: 188)، وأخرجه أحمد في المسند 6/46.

(6) رواه الدارقطني في السنن 3/316 (الحديث رقم: 259).

(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/423.

رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾.

﴿الذين يظاهرون منكم﴾ في منكم توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار؛ لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصةً دون سائر الأمم ﴿ما هنّ أمهاتهم﴾ وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود: بأمّهاتهم وزيادة الباء في لغة من ينصب، والمعنى: أنّ من يقول لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين. ﴿إن أمّهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ يريد أنّ الأمّهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمهات؛ لأنهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات. وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين؛ لأنّ الله حرّم نكاحهنّ على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة؛ لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة ولا بداخلات في حكم الأمهات. فكان قول المظاهر منكرًا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورًا وكذبًا باطلاً منحرفًا عن الحق ﴿وإن الله لعفوّ غفور﴾ لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه، ثم قال: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ يعني: والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول[1] المنكر فقطعوه بالإسلام ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة، ثم يماس المظاهر منها، لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة. ووجه آخر ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا[2]؛ لأنّ المتدارك للأمر عائد إليه ومنه المثل: عاد غيث على ما أفسد أي: تداركه بالإصلاح. والمعنى أنّ تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار. ووجه ثالث وهو أن يراد بما قالوا[3] ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ [4] ويكون المعنى ثم يريدون العود للتماس، والمماسة: الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها لشهوة ﴿ذلكم﴾ الحكم ﴿توعظون به﴾ لأنّ الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه.

فإن قُلْتَ: هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ؟ **قُلْتُ:** نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج. ومكان الظهر عضوًا آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ أو مكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع. نحو أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي أو أمّ امرأتي أو بنتها. فهو مظاهر وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه. وقال الشافعي: لا يكون الظهار إلا بالأمّ وحدها. وهو قول قتادة والشعبي، وعن الشعبي: لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمّهات الوالدات دون المرضعات. وعن بعضهم: لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارًا.

فإن قُلْتَ: فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن ترافعه؟ **قُلْتُ:** لها ذلك وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأنه يضرّ بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع فيلزم إيفاء حقها.

فإن قُلْتَ: فإن مسّ قبل أن يكفر! **قُلْتُ:** عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر. لما روي أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله ﷺ: ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها. فقال عليه الصلاة والسلام: «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر»[5].

فإن قُلْتَ: أي: رقبة تجزي في كفارة الظهار؟ **قُلْتُ:** المسلمة والكافرة جميعًا؛ لأنها في الآية مطلقة. وعند الشافعي: لا تجزي إلا المؤمنة لقوله تعالى: في كفارة القتل: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾[6] ولا تجزي أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئًا فإن لم يؤدّ شيئًا، جاز. وعند الشافعي لا يجوز.

---

(1) قال أحمد: وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرّد قول الظهار في الإسلام لا غير، والقول بوجوبها بمجرّد الظهار، قول مجاهد من التابعين، وسفيان من الفقهاء.

(2) قال أحمد: وهذا التفسير منزل، على أنّ وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار، وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار، ولا يخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التي ذكرها العلماء.

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يقوي القول، بأنّ العود الوطء نفسه؛ لأنّ حاصله ثم يعودون للوطء، وظاهر قولك: عاد للوطء فعله، وحمل العود على الوطء من جملة أقوال مالك رحمه الله، فقد تلخص أنّ كلام المختلفين في العود له مأخذ من هذه الآية، فأمّا من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرّد الظهار، فحمل العود على= الظهار، وتسميته عوداً، والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام، فإيقاعه بعد الإسلام عود إليه، وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار.

(4) سورة مريم، الآية: 80.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (الحديث رقم: 2221)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 1199)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3458)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 2065).

(6) سورة النساء، الآية: 92.

فإن قلت: فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس **قلت:** عليه أن يستأنف نهار أمس أو ليلاً ناسيًا أو عامدًا عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف. ومحمد عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل وإلا بنى.

فإن قلت: كم يعطي المسكين في الإطعام؟ **قلت:** نصف صاع من برّ أو صاعًا من غيره. عند أبي حنيفة وعند الشافعي مدًا من طعام بلده الذي يقتات فيه.

فإن قلت: ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكر عند الكفارتين! **قلت:** اختلف في ذلك فعند أبي حنيفة أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله وعند غيره لم يذكر للدلالة على أن التكفير قبله وبعده سواء.

فإن قلت: الضمير في أن يتماسا إلام يرجع؟ **قلت:** إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها.

﴿ذلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا **﴿بالله ورسوله﴾** في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم. **﴿وتلك حدود الله﴾** التي لا يجوز تعديها **﴿وللكافرين﴾** الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها **﴿عذاب أليم﴾**.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾

﴿يحادون﴾ يعادون ويشاقون **﴿كبتوا﴾** أخذوا وأهلكوا **﴿كما كبت﴾** من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. **﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾** تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به **﴿وللكافرين﴾** بهذه الآيات **﴿عذاب مهين﴾** يذهب بعزهم وكبرهم.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم أو بمهين أو بإضمار اذكر تعظيمًا لليوم **﴿جميعًا﴾** كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول حي جميع **﴿فينبئهم بما عملوا﴾** تخجيلاً لهم وتوبيخًا وتشهيرًا بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد **﴿أحصاه الله﴾** أحاط به عددًا لم يفته منه شيء **﴿ونسوه﴾** لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ما يكون﴾ من كان التامة. وقرئ: بالياء والتاء والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقي ومن فاصلة أو على أنّ المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة أي؛ من نجوى ثلاثة نفر أو موصوفة بها أي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى: ﴿خلصوا نجيًا﴾(1) وقرأ ابن أبي عيلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأنّ نجوى يدل عليه أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قلت: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ **قلت:** فيه وجهان أحدهما: أنّ قومًا من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك **﴿ولا أدنى من﴾** عدديهم **﴿ولا أكثر إلا﴾** والله معهم يسمع ما يقولون. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يومًا يتحدّثون فقال أحدهم: أترى أنّ الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضًا ولا يعلم بعضًا. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضًا فهو يعلم كله. وصدق؛ لأنّ من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأن كونه عالمًا بغير سبب ثابت له مع كل معلوم. والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندبون لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي التجارب وأول عددهم الاثنان فصاعدًا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ولا أدنى من ذلك فدلّ على الاثنين والأربعة. وقال: ولا أكثر فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا. وقرئ: **﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر﴾** بالنصب على أن لا لنفي الجنس، ويجوز أن يكون **﴿ولا أكثر﴾** بالرفع

---

(1) سورة يوسف، الآية: 80.

معطوفًا على محل ﴿لا﴾ مع ﴿أدنى﴾ كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة، ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفًا على محل من نجوى كأنه قيل: ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفً على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر بالباء ومعنى كونه معهم أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم ينبئهم على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾.

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم. فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول.

﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ يعني: أنهم يقولون: في تحيتك السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[1] ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ما له إن كان نبيًا لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول. فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ عذابًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيهم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه». وروي: «دون الثالث»[2]. وقرئ: فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا تنجيتم فلا تنتجوا.

إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾.

﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بدليل قوله تعالى: ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أنّ الشيطان يزينها لهم فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿بضارهم شيئًا إلا بإذن الله﴾.

فإن قُلْتَ: كيف لا يضرّهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا. فقال: لا يضرّهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله أي: بمشيئته. وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن وليحزن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿تفسحوا في المجالس﴾ توسعوا فيه، وليفسح بعضكم عن بعض. من قولهم: أفسح عني أي: تنح. ولا تتضاموا. وقرئ: تفاسحوا. والمراد: مجلس رسول الله وكانوا يتضامون فيه تنافسًا على القرب منه وحرصًا على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: مقاعد للقتال. وقرئ في المجالس قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ في المجلس بفتح اللام وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿يفسح الله لكم﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك. ﴿انشزوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا. ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة[3] ﴿درجات﴾. ﴿بما تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد

(1) سورة النحل، الآية: 59.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (الحديث رقم: 6290) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (الحديث رقم: 37 ـ 2184).

(3) قال أحمد: في الجزاء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل؛ لأنّ المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان = الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جوزي على تواضعه برفع الدرجات، كقوله: من تواضع لله رفعه الله، ثم لما علم أنّ أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله تعالى.

مائة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة»[1]. وعنه عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[2]. وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[3] فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: «خير سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه»[4]. وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم»[5]. وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم، وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابًا، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبيري: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

﴿بين يدي نجواكم﴾ استعارة ممن له يدان. والمعنى: قبل نجواكم. كقول عمر: «من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم»[6] يريد: قبل حاجته **﴿ذلكم﴾** التقديم **﴿خير لكم﴾** في دينكم **﴿وأطهر﴾** لأنّ الصدقة طهرة. روي «أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ بما يريدن حتى أملوه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدّم قبل مناجاته صدقة. قال علي رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «كم قلت حبة أو شعيرة». قال: إنك لزهيد. فلما رأوا ذلك اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا، أما الفقير فلعسرته، وأما الغنيّ فلشحه»[7]. وقيل: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي رضي الله عنه: «إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم»[8]. قال الكلبي: «تصدق به في عشر كلمات سألهنّ رسول الله ﷺ»[9]. وعن ابن عمر: كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى، قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي بعدها. وقيل: هي منسوخة بالزكاة.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

﴿أأشفقتم﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء **﴿فإذا لم تفعلوا﴾** ما امرتم به وشق عليكم و **﴿تاب الله عليكم﴾** وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه. فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات **﴿بما تعملون﴾** قرئ بالتاء والياء.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾.

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب الله﴾[10] ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين **﴿ما هم منكم﴾** يا مسلمون **﴿ولا منهم﴾** ولا من اليهود كقوله تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[11] **﴿ويحلفون على الكذب﴾** أي: يقولون والله إنا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام. **﴿وهم يعلمون﴾** أن المحلوف عليه كذب بحت.

فإن قلتَ: فما فائدة قولهم وهم يعلمون؟ **قلتُ:** الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم. فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغموس، وقيل: «كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان»، فدخل ابن نبتل وكان أزرق. فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ فحلف بالله ما فعل. فقال عليه السلام: «فعلت». فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه[12] فنزلت.

(1) أخرجه أبو يعلى بلفظ فضل العالم على العابد سبعين درجة (الحديث رقم: 856).

(2) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث من طلب العلم (الحديث رقم: 223)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم (الحديث رقم: 3641)، وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة (الحديث رقم: 2682).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (الحديث رقم: 4313)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طلب العلم فصل في فضل العلم وشرفه (الحديث رقم: 1707).

(4) مسند الفردوس.

(5) رواه ابن عبد البر في كتاب: العلم من غير سند. والزيلعي 3/429.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، ومن سورة المجادلة (الحديث رقم: 3300)، وابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6941).

(8) رواه الحاكم في المستدرك 2/482.

(9) قال الزيلعي لم أجده 3/431.

(10) سورة المائدة، الآية: 60.

(11) سورة النساء، الآية: 143.

(12) رواه الحاكم في المستدرك 2/482 وأحمد في المسند 1/267.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

﴿عذابًا شديدًا﴾ نوعًا من العذاب مفاقمًا ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعني: أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل مصرين عليه أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾.

وقرئ ﴿إيمانهم﴾ بالكسر أي: اتخذوا ايمانهم التي حلفوا بها أو أيمانهم الذي أظهروه ﴿جنة﴾ أي سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم.

﴿فصدوا﴾ الناس في خلال امنهم وسلامتهم ﴿عن سبيل الله﴾ وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾.

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصدهم كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾ ﴿من الله﴾ من عذاب الله ﴿شيئًا﴾ قليلاً من الاغناء. روي أنّ رجلاً منهم قال: لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾.

﴿فيحلفون﴾ لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا على ذلك ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وأن لهم نفعًا في ذلك دفعًا عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وانهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باقٍ فيهم لا يضمحل. كما قال: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بثباته نطقًا مكشوفًا كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[1] نظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عن ذلك: يختم على أفواههم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾

يعني: أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة.

ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إذا جمعها وساقها غالبًا لها، ومنه كان أحوذيًا نسيج وحده وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق أي: ملكهم ﴿الشيطان﴾ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه. ﴿فانساهم﴾ أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾.

﴿في الأذلين﴾ في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحدًا أذل منهم.

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾.

﴿كتب الله﴾ في اللوح ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿لا تجد قومًا﴾ من باب التخييل خيل أنّ من الممتنع المحال أن تجد قومًا مؤمنين يوالون المشركين. والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيدًا وتشديدًا بقوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ وبقوله: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ فلا تجد شيئًا أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه بل هو الإخلاص بعينه ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ اثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم ﴿وأيدهم بروح منه﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

(1) سورة الأنعام، الآية: 23.

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قومًا»[1]. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله» «أوفعلته»؟ قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريبًا مني لقتلته»[2]. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»[3]. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة فحالفوا عليه قريشًا عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبًا غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذاك. فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم. فدرّبوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة»[5].

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾.

اللام في **﴿لأوّل﴾** الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: **﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾**[6] وقولك جئته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى **﴿أوّل الحشر﴾**: أن هذا أوّل حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأنّ المحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أنّ المحشر ههنا يعني: الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم؛ لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول الله ﷺ **﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾** لشدّة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدّتهم وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله **﴿فأتاهم﴾** أمر الله **﴿من حيث لم يحتسبوا﴾** من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب والهمم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسبانهم ومنه أتاهم الهلاك.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قولك وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ **قُلْتُ:** في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسمًا لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك:

وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم

وقرئ: **﴿فآتاهم الله﴾** أي: فآتاهم الهلاك. و**﴿الرعب﴾**

(1) رواه ابن مردويه في تفسيره وفي مسند الفردوس. والزيلعي 3/ 432.

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 3/433.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 3/433.

(4) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 3/434.

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند 3/ 438.

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا.